



في موقفٍ انطوى على بعض الالتباس عند مجموعة من الأصحاب كان أحد الشباب يلحّ عليَّ ويطالِب بالوضيْح، ويُكرر حديثاً رواه البخاري عن صَفَيَّةَ: أَنَّهَا جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَزَوَّرُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ، فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقِلِبُ، فَقَامَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَهَا يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَّمَةَ مَرَّ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّمَا هِيَ صَفَيَّةُ بِنْتُ حُبَيْبٍ». فَقَالَا سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ . وَكَبَرَ عَلَيْهِمَا فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئاً».

كنت أحفظ الحديث، ولكنني أحسست بأنني أسمعه لأول مرة، فهذا الرسول القائد المعصوم، وهو فوق الشبهات، فما شأن القصة إذا؟

أستبعد أن يكون الرجالان من المنافقين - كما ادعاه بعضهم - بل هم من الأنصار.

والقصة مشتملة على معانٍ عظيمة في إيضاح الملتبس، وإغلاق طريق الشك والريبة، ومجانية العاقل للمواقف المثيرة للاستغراب، فلا يمنح خصومه أسباباً للوقيعة وسوء الظن.

ولكن البعض يبالغ في هذا الاستدلال حتى يمتنع من كثير من المصالح تحت ذريعة الخوف من أن يفهمها بعض الناس خطأً أو يحول المباحثات إلى محظورات، وقد يشغل الناس بتفسير موافق له لا تعنيهم.

والحديث كما يقول علماء الأصول: "وَاقْعَةٌ عَيْنٌ لَا عُومَ لَهَا".

أن يُقدِّر صاحب الشأن أن الموقف يستدعي شيئاً من الإيضاح لسبب ما فهذا حسن.

أما مطالبة الآخرين والإلحاح الدائم عليهم بأن يعلقوا ويفسروا كل مواقفهم، وإشهار هذا الدليل في وجوههم فهو أمر يحتاج إلى تأمل.

وقد ذهب كثيرٌ من أهل العلم إلى أنَّ من خصائص الرسول -صلى الله عليه وسلم- جواز خلوته بنساء أمته، ونظره إليهن؛ لأنَّه مأمور لعصمتها، وقد ائتمنه ربه على أعظم أمانة؛ أمانة تبليغ الوحي: {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَيْنَ} (24) سورة التكوير، فلو لم تكن صَفَيَّةً ما كانت ريبةً في حقه بأبيه هو وأمي.

وليس لأحدٍ أن يتَرَكَّص بما كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعله من الخصائص التي لم يشاركه فيها حتى صحابته الكرام. وبهذا المعنى "وهو الخصوصية النبوية" أجاب بعض العلماء عن دخوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على أمِّ حَرَامِ بِنْتِ مَلْحَانَ، وقال آخرون بأنها كانت محرومة من الرضاع .

وفي حديث الرُّبِيعِ بِنْتِ مُعَاوِذِ قَالَتْ: (رَدَخَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - غَدَاءَ بُنْتَ عَلَيَّ ، فَجَاسَ عَلَى فِرَاشِي ، وَجُوَيْرَاتٌ يَضْرِبُنَ بالدُّفِّ..).

قال ابن حجر: "والذي وضع لنا بالأدلة القوية أن من خصائص النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جواز الخلوة بالأجنبيه والنظر إليها" (الفتح ٩/٢٠٣).

وفي المتفق عليه عن أسماء أنها لقيت رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَمَعَهُ نَفَرٌ مِّنَ الْأَنْصَارِ فَدَعَاهَا ثُمَّ قَالَ: «إِخْ إِخْ» -كلمة تقال للبعير لمن أراد أن ينبحه- لِيَحْمَلَنِي خَلْفُهُ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَسِيرَ مَعَ الرِّجَالِ ، وَذَكَرْتُ الزُّبُرَ وَغَيْرَتُهُ ، وَكَانَ أَغْيَرُ النَّاسِ ، فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنِّي قَدِ اسْتَحْيَيْتُ فَمَضَى.. الحديث.

وتحمل المسألة بعضهم على محامل أخرى؛ كالقرابة، أو الرضاع، أو غيرها.

وفي صحيح مسلم: عَنْ أَنَسِ بْنِ ظَافِرٍ أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً فَقَالَ: «يَا أُمَّ فُلَانِ انظُرِي أَيَ السِّكِّ شِنْتِ حَتَّى أَفْخِسِي لَكِ حَاجَتَكِ». فَخَلَأَ مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا.

وفي البخاري: «إِنْ كَانَتِ الْأُمَّةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذْ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ».

مواقف كثيرة إذن لم يتحتاج الأمر فيها إلى شرح ولا بيان، فمقامه -عليه الصلاة والسلام- فوق الشبهات، وقد صدقه المؤمنون لما هو أعظم من ذلك وهو خبر جبريل يأتيه بالوحي بكرةً وعشياً .

في موقف الحديبية أبرم الصلح مع قريش، وتحلل من إحرامه، والتزم بردٍ من يأتيه من المهاجرين؛ مما أدخل على أصحابه حزناً شديداً حتى قال عمر -رضي الله عنه- ما قال: أَوَلَيْسَ بِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَوْلَسَنَا بِالْمُسْلِمِينَ أَوْلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ ولم يزد رسول الله على أن قال : «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ لَنْ أَخْاْلِفَ أَمْرَهُ وَلَنْ يُضِيَّعَنِي»، ولم يُنقل أنه جمع الناس ولا ألقى فيهم خطبة ولا طوئ ولا فصل!

من الاعتدال ألا تضع نفسك إذن مواضع الشبهات ولست بمعصوم، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

ومن الاعتدال ألا تطالب الناس بأن يكونوا على جاهزية تامة لأن يجيبوا على كل تساؤلاتك حالاً مواقف أو أعمال أو آراء صدرت عنهم أو نسبت إليهم، فهم أولى بتقدير ما يقولون وما لا يقولون، ومتنى يُعلّقون، ومتنى يؤثرون الصمت..

خاصة في عصر الشبكات؛ الذي أتاح لكل أحد أن يقول جاداً أو هازلاً أو مستفزًا أو جاهلاً أو مشاغلاً.. فالصمت في أحيان كثيرة يكون حكمة، والإعراض يكون عقلاً، وربما فتحت على نفسك بالجواب أبواباً من السؤال لا يغلق!

ثم موافق قوية الاشتباه والالتباس وشائعة تتطلب من المعنى بها؛ أكان مسؤولاً أو عالماً أو داعية أو مشهوراً أن يُبيّن ملابساتها..

وثم موافق ليست خاصة ولا شخصية بل تتعلق بمسؤوليتك التي أناطتها بك الأمة وحملتك ببعتها، ويجب أن توضح كما كان الخلفاء الراشدون يوضّحون وجه الأمر والمسألة، وما لهم وما عليهم، وهذا باب (من أين لك هذا؟)، وهو موضوع مختلف..

وإنما يُكلف الإنسان أن يتصرف في المسائل الخاصة بحسب وسعه، واجتهاده، ونظرته للأمور.

وليس من العقل والرشد أن تضيع حياتك في مطاردة الآخرين، واستجلاء موافقهم ودوافعهم، وتفاصيل ما جرى منهم أو لهم أو معهم، وطوبى لمن اشتغل بنفسه عن غيره.

الناس أحرار وليس على أفواههم أقفال، ولا على أقلامهم أغلال، يقولون ما يشاؤون، لا يحجزهم إلا تقوى الله عن الطيش، والظلم، والتسرع، وسوء الظن، أو الخوف من العقوبات الدنيوية..
والله أعلم.

الإسلام اليوم

المصادر: